مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على إمامِ الدعاةِ وقدوة المهاجرين، سيدنا محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيارِ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

يُقال في الأمثال الرائجة "تتّضح الرسالة من عنوانها"، وكذلك فإنّ من يتناول هذا الكتاب الذي بين أيديكم فإنه يفهم موضوعه من عنوانِه الجامع المانع "عقبات في سبيل الحق".. فهو يتناول مرحلة دقيقة وحساسة من مراحل السير والسلوك إلى الله، وهي مرحلة العقبات والعراقيل ووضعِ العصيِّ في العجلات، والتي هي قدرٌ محتومٌ على جميعِ الأنبياءِ والمرسلين والمُصلِحين والمجدّدين.

وليس من دَيدان المؤلّف حفظه الله أن يتناول الداء بعيدًا عن الدواء، ولا أن يشجُب القدرَ بمعزِلٍ عن العمل الدؤوب، بل إنه يتناول العقبات ويُردِفها بسبلِ الخلاص منها، ويعرض الداءَ متبوعًا بالدواء، وينصّ على المفاهيم الدينية التي ينبغي على رواد الطريق أن يتحلوا بها في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ مسيرتهم في سبيل الحق.

obeikandi.com

وبين دفتي هذا الكتاب نجد المؤلّف يحوم بحرفيّة ومهارة دقيقتين حول الضريبة التي قُدِّرَ على سالكي طريق الحق أن يقدموها، وحول الثمن الباهظ الذي يُفرض على حملة اللواء، فيُحضِّر السالكين ويُعدّهم لتحمّل مثل هذه المشاقّ، ويذكّرهم بإخوانهم الذين سبقوهم في هذا الطريق، ويصقل أرواحهم بما يتناسب مع السيرِ في سبيل الحق المليءِ بالعقبات والعراقيل.

وبالمثال يتّضح المقال، فلنسلِّط الضوءَ على شيءٍ من تلك التوجيهات الراقية، إذ إنه عندما يتناول ما تتعرّض له الخدمة ورجالُها من ابتلاءات واتّهامات، وما يوضَع في طريقها من عراقيل وعقبات، وما تعيشه من هجرة قسريّة واعتقالات؛ تراه يستدعي تاريخَ الإنسانية المليء بما يُشبه هذا النوع من المحن والابتلاءات، فيضرب المثل بنوحٍ عليه السلام وهجرته البحرية، وإبراهيم عليه السلام ومراحل هجرته المقدّسة المتنوعة الأطوار، وموسى عليه السلام الذي كُتبت عليه الهجرة وهو رضيعٌ في مهد أمه، إلى جانب ما قدمه يحيى وزكريا عليهما السلام من تضحية فريدة أدت إلى استشهادهما وبذلِ أنفسهما في هذا السبيل، ثم يعرّج على إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويُنبّه إلى أن هذا الأمرَ قدَرٌ مشترك بين جميع الأنبياء والأولياء، وينقل لنا تلك الصورة القلمية وكأنها حيّة أمام أعيننا، عندما ألقى النبي نظرة الوداع على ربوع وطنه مكة قائلًا: "**أَمَا وَاللهِ لأَخْرُجُ مِنْكِ وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكِ أَحَبُّ بِلادِ اللهِ إِلَيَّ وَأَكْرَمُهُ عَلَى اللهِ؛ وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ**" .

ثـم يعرض ما عاشـه السـلف الصالـح مـن آلام ومصائب على ذات الطريـق، فيُذكِّرُ بمحنة الإمام أحمـد بن حنبل، ومن قبله الإمام أبـي حنيفـة النعمان، وكذلـك كيف ألَّف الإمام السرخسـي كتابه في محبسـه، وفي عقبهم بديـع الزمان سـعيد النورسي وما تعرّض له من ظلم وحبسٍ وتشريد، إلى أن يختم بعد ذلك العرض المفصّل قائلًا:

"أجل، إن الراحلين في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ لم يفارقْهم الألـمُ والبلاءُ لحظةً من اللحظات.. وهكذا، فما بين المعاناة والمكابدة والغربة... كان ذلك هو القَدَرُ المشترَكُ بين كلِّ من يسلك طريقَ تبليـغ وتمثيل الحق والعدل.."

ثـم يضـعُ نفسـه ومحنتـه وحركتـه في مكانهـا اللائـق من تلك المنظومـة التـي ملأت أحقـاب التاريخ وحيـاةَ الأنبيـاء، فيقول بكل تواضـعٍ وأدب:

"وإن الظلمَ الذي أَقَعُ تحت وطأته حاليًّا يُشْـبِهُ تقريبًا ما تعرَّضَ له أسـلافُنا جميعًا، وثمة أمرٌ يحسُـنُ توضيحُهُ لِبَعْضِ ضِعافِ الفهمِ أو لِلمَهَرَةِ في التحريفِ والتزييفِ ألا وهو: أنني لسـتُ أرى نفسـي في مقام الأنبياء أو الأولياء الذين ذكرتُهم آنفًا هنا، وإنما أُذكِّرُ بأسـمائهم وما عانوه وعاشـوه فحسـب؛ لأنهم القدوة والمرشـد بالنسـبة لكل مؤمن، واتّباعُ منهجهم ومحاولةُ اقتفاء آثارهم في حياتنا وسيلةُ نجاتنا وفَلاحِنا.

إننـي إنسـان بسـيطٌ أُدركُ جيّـدًا مدى عجـزي وضعفي، ولذلك فإنه طبيعيٌ أنْ أتأثَّرَ ببالـغِ الحزنِ من بعضِ الاتهامات وأن تسـتثقلَها روحـي تمامًـا، غير أنه وبالرغم من كل شـيء ينبغي للمؤمن أن يتخلَّقَ بأخلاقِ الله، فالله تعالى يرأفُ ويلطُفُ

حتى بعباده العاصين المذنبين المخطئين ويرزقُهم ويُطْعِمُهم ويسقيهم، وعلى العبدِ المؤمنِ أيضًا أن ينظرَ ويقتربَ إلى الآخرين من هذه الزاوية، وينبغي له حتى حين يتأزَّمُ ويسأمُ للغاية في مواجهة المظالم والجور والاستبداد أنْ يكِل إلى الله تعالى فحسب أمرَ من يُعادُونَهُ ويُخاصِمونه؛ فيلجأ إليه سبحانه قائلًا: "اللهم إنني أُحِيلُ إليك أمرَ من يُعادون أهلَ الإيمان ويبغضونهم"، وعليه أن يهتمَّ بواجباته دون أن يأبَهَ بهذا وذاك، ودون أن يشغل عقلَه وبالَهُ بهم، وأنْ يواصل السير في الطريق الصحيح منتصبًا صامدًا كالألِف".

إنه -ومن خلال هذا الكتاب الذي يخاطب أعماق الروح المؤمنة- يحضُّ السالكين على أن يكونوا كأشجارِ الدلب الشاهقة في مواجهة العواصف العاتية، فلا يتغيّروا ولا يتبدّلوا، ولا يدوروا مع المصالح حيثما تدورُ، وألا يختلف شأنُهم في أيام المحن والأزمات ولو قيدَ شعرة عن شأنِهم في أيام الرخاء والمسرّات، فيقول:

"على المؤمنين بحسب قيمهم الأساسية ألا يُغيّرُوا تصرُّفاتهم وفقًا للظُّروف والأحوال التي تطرأ، وأنْ يعلموا جيّدًا أنَّ شرفهم يتمثَّل في أسلوبهم أثناء مواجهة أكثر الاعتداءات غدرًا وجورًا، وينبغي لهم أن يثبتوا على الطريق المستقيم دائمًا كما هو شأنهم في غير أوقات المحن والأزمات، لدرجة تكفلُ لِمَنْ يبغي استقراءهم وفهمَهم ألَّا يَجِدَ أبدًا أيَّ تناقضٍ يُشكِّل نوعًا من الريب والشك في الأذهان، وإلا فلا يوثق فيهم، وبالتالي يستحيل عليهم أن يحقِّقُوا تقدُّمًا في إبلاغ الآخرين إلهاماتِ أرواحهم.

على المؤمن ألا يكون كأوراق الشجر التي تذروها الرياح، بل يجب عليه أن يتمثل موقفًا ثابتًا دائمًا لا يتزعزع، مثله في ذلك مثل الأشجار الضاربة جذورها في أعماق الأرض، وكما يُحدِّثُنا علماءُ النبات فإن هناك أشجارًا في بعض البلاد سرعان ما تنقلع بسبب ضعفِ جذورِها إذا ما هبَّتْ ريحٌ عاتيةٌ أو نزلَ الثلجُ بكثافةٍ أكثر، حتى إن لِينَ التربة قد يكون سببًا كافيًا لتهاوي هذه الأشجارِ وتحطُّمها دون حاجة لأيِّ سببٍ خارجيٍّ، أما في بعض البلاد فهناك أشجارٌ تضرب بجذورها -ربما كي تعثرَ على الماء- بضعةَ أمتار في أعماق الأرض، وبهذه الطريقة فإنّها تصمدُ وتكون أكثر ثباتًا ومقاومةً رغم العواصف الشديدة، وهكذا ينبغي للإنسان المؤمن أن يكون.

أما مَنْ يُغيّرون مواقفهم باستمرار بحسب طبيعة الظروف التي يتعرَّضون لها، ويُجسّدون مواقف نفعيّة تدورُ مع المصالحِ حيثما دارت؛ فإنّهم يفقدون أمانتهم عند الناس بعد فترة ما فلا يثقون فيهم، فلا بدَّ من الصمود والثبات على الموقف والمحافظةِ على المنهج الصحيح لِكسب ثقة الناس، ينبغي ذلك؛ لدرجة أن من جَسَّ نبضكم وسمع دقَّاتِ قلوبكم قبلَ عشرين سنة يجد نفسَ النبضات والدقّات حين يُعيد اليومَ جسَّ نبضِكم وسماعَ دقّات قلوبكم لا تتغيَّر رغمَ ما تتعرضون له من شتى صنوف الابتلاءات والأزمات والضغوط والنوازل والمحن".

وفي نهاية المطاف يوجّه السالكين إلى أفقٍ محمّديٍّ صِرف، أشبه ما يكون بأفق "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فيقول في معرضِ حديثه

عـن كيفيّة مواجهـة مفتعلي تلك الأزمات وصنّـاع تلك العقبات في مقاله "الوفاق والاتّفاق من جديد" ما نصُّه:

"قد يُسيء لكم البعضُ بإساءات لا يَتصورُ عقلٌ حدوثَها، ويضـع الأشـواك والأحجـارَ في طريقكم حتـى يمنعكم من السير، ويقوّض الجسور التي تمرون عليها ليعرقل مسيرتكم، ويرغـب فـي أن يعزلكم كلّيةً عن المجتمـع، ولكن إن كنتم تريدون أن تكونوا صروحًا للفضيلة وتصِلوا للوفاق والاتفاق فعليكـم أن تتغاضـوا عـن كلِّ هـذا وتسـتمرُّوا فـي طريقكم قائلين: "لا شيءَ يدوم!".. فإن انهدَمَت الجسورُ التي تسيرون عليهـا فأقيمـوا جسـورًا بديلـة جديدة لأنفسـكم فـي أماكن أخرى، واستمروا في طريقكم بفضلٍ من الله وعنايته، حذِرينَ مـن الوقوعِ في الخلاف، حتى وإن كان الآخرون قد اتَّخَذُوا الخلافَ شعارًا لهم.

سيأتي يومٌ يَفِدُ عليكم فيه بعضُ مَن كانوا يسيؤون إليكم فيُعربـون عـن ندمهـم، وحينئـذ يجـبُ أن يجدوكـم على ما كنتـم عليه، فإن طلبوا الاعتذار منكم فتعاملوا معهم بشـهامة ومـروءة، وقولـوا لهم: "معـاذ الله، لا علمَ لنا بهـذا، إننا دائمًا نشعرُ أنكم إلى جانبنا في نفسِ الخندقِ على الدوام".

نعـم. اِفْعلـوا هذا رغمَ أن الواقـعَ يشـهدُ بأنهـم كانوا قد ابتعـدوا عنكم فراسـخ عددًا نتيجة الحسـدِ والغيـرةِ؛ وبأنَّهم دائمًـا ما كانـوا يؤلّبون الغيـر عليكم قائليـن: "اقطعوا عليهم طريقهـم، ونالوا منهم، ولا تعترفوا لهم بحق الحياة"! وبأنهم حينمـا كانـوا يرتكبون هـذا الظلم لم تكـن بحوزتهم حجج

معقولـة تقرّهـم علـى مـا يفعلون، بـل كان دافعهـم إلى هذا الحسـد والغيرة ليس إلا، ولا شـك أن شعور التنافسِ يكمن حتى داخل أكثر الناس صفاءً وطُهرًا، فيحاول بعضهم احتكارَ بعض المجالات لنفسه ولا يسمح للآخرين بالمشاركة فيها.

وهكـذا فإنهـا لَميـزةٌ عظيمـة بالنسـبة لأرباب الحـقِّ أن يتغاضوا عن كل هذا، ولا يعتدّوا به وكأنه ما كان، وأن يثبتوا على موقفهم".

وأخيـرًا وليـس آخـرًا: فإننا نتقـدم بخالص الشـكر والتقدير إلى فضيلـة الأسـتاذ فتـح الله كولـن على ما قدّمـه من إرشـادات لحملة اللواء، وتوضيحٍ لمقدّرات الطريق، وتذليلٍ لعقبات السـبيل، ونتمنى له دوام الصحة والعافية، وننتظر منه المزيد..

أغسطس/آب (٢٠١٦م)

دار النيل للنشر والتوزيع

obeikandl.com